مجلة العلوم الإسلامية والحضارة
المجلد 07 - العدد 01 - السنة 2022

ISSN 2477 – 9903 رقم
ص 265 - 286

مصطلح أهل السنة والجماعة وتشكيله لحركة تغيير في التاريخ الإسلامي

The term Ahl al-Sunnah wal-Jama`ah and its formation of a movement for change in Islamic history

عايسي عتيقة[1] *، حسيني صونية[2]

[1] مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائرahmedaissi38@gmail.com

[2] جامعة الحاج لخضر، باتنة1، الجزائر d-sonia@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/28 تاريخ القبول: 2021/12/11 تاريخ: النشر: 2022/01/25

الملخص:

انتقلت الدولة الإسلامية عبر مراحل تاريخية طويلة، ومرت المجتمعات الإسلامية بأنظمة حكم متعددة، وانتقلت مجموعة من المفاهيم من ألفاظ تطلق على وجه العموم، إلى مصطلحات لها مفهوم عرفي وشرعي يدل عليها. ومن هذه المصطلحات مصطلح أهل السنة والجماعة، الذي يرتبط كثيرا بالأحكام الشرعية، وبعلم أصول الفقه والمذاهب الفقهية .

انتقل مفهوم أهل السنة والجماعة من نقطة تحول سياسي في تاريخ الدولة الإسلامية، إلى مصطلح يميز كيان من أهل الحديث اعتمدوا الحفاظ على سنة الرسول ﷺ ودراستها، ومنها انتقل إلى اسم أهل السنة، إلى أن استقر على مصطلح "أهل السنة والجماعة" الذي يحمل في مضمونه عدة دلائل منهجية وعلمية، شكلت الأثر العميق في تاريخ الأمة الإسلامية، السياسي منه والعلمي والاجتماعي إلى تاريخنا المعاصر.

الكلمات المفتاحية: أهل السنة والجماعة؛ التغيير؛ المنهج.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The Islamic state has moved through long historical stages, Islamic societies have gone through multiple regimes, and a number of concepts have moved from terms used in general, to terms that have a customary and legitimate concept that indicates them. Among these terms is the term Ahl al-Sunnah wal-Jama`ah, which is closely related to legal rulings, and to the science of the principles of jurisprudence and jurisprudence schools.

The concept of Ahl al-Sunnah wal-Jama’ah moved from a political turning point in the history of the Islamic state, to a term that characterizes an entity of the people of hadith who relied on preserving and studying the Sunnah of the Messenger, may God bless him and grant him peace. It carries in its content several methodological and scientific evidence, which formed a deep impact in the history of the Islamic nation, from political, scientific and social levels to our contemporary history.

Keyword: Ahl al-Sunnah wal-Jama`ah, change, approach.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وسبحانه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الذي نستغفره ونستعينه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن مُحَّد عبده ورسوله ﷺ ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

البحث في المصطلح من أهم الدراسات التي ينبغي الاعتناء بها في البحوث الإسلامية، لأنه يمكن من وضع منهج دقيق في دراسة المصطلحات الشرعية في مختلف العلوم الإسلامية التي تزخر بها المكتبة الإسلامية.

ولهذا فإن البحث في مصطلح أهل السنة والجماعة ودراسة مفهومه وتطوره عبر المراحل التاريخية التي مرت بها الدولة الإسلامية من وفاة النبي ﷺ وبداية الخلافة الراشدة إلى عصرنا الحالي، فكانت إشكالية هذا الموضوع ضمن سؤالين هامين:

1. ما هو الإطلاق الأول لمسمى أهل السنة والجماعة، وما كان مفهومه؟.

2. كيف تطور مصطلح أهل السنة والجماعة؟.

فكان هذا الموضوع في دراسة مصطلح أهل السنة والجماعة الذي جاء تحت مسمى: **"مصطلح أهل السنة والجماعة وتشكيله لحركة تغيير في التاريخ الإسلامي"**.

أهمية الموضوع:

إن موضوع تطور مصطلح أهل السنة والجماعة أهميته، لأنه يعالج المفهوم اللغوي والشرعي والاصطلاحي الذي عرض لهذا اللفظ في التاريخ الإسلامي وما شكله من تغيير في الرؤية لعامة المسلمين تجاه فرقة أهل السنة والجماعة والفرق الأخرى، وكذا التغيير العلمي والمنهجي في الفقه وأصوله، من خلال إنشاء المدارس الفقهية، ودورها في نشر المعرف والعلوم الإسلامية للأمة الإسلامية.

أسباب اختيار الموضوع:

اختيار موضوع تطور مصطلح أهل السنة والجماعة، يرجع إلى أسباب ذاتية وموضوعية كما يلي:

1. دراسة مفهوم المصطلح وتطوره، لأن المصطلح من أهم البحوث التي تمكن من معرفة أصول العلوم، وتسهل معرفة المفاهيم والتفريق بينها وبين مصطلحات العلوم الأخرى، والمفاهيم المقاربة.

2. تحديد مفهوم أهل السنة والجماعة، لأنه وضع بشكل ظاهر في أصول الفقه والمذاهب الفقهية.

3- تحديد ارتباط مصطلح أهل السنة والجماعة بسنة رسول الله ﷺ.

أهداف الموضوع:

1. بيان المفهوم الدقيق لمصطلح أهل السنة والجماعة، وكيفية تطوره في المجال العلمي واستخدامه لدى علماء الأمة، واهتمام العامة بهذا المصطلح وفهمهم الصحيح لمعانيه المنهجية والعلمية.

2. ربط دراسة المصطلحات بتطورها في التاريخ الإسلامي، من خلال وضعها في الإطار الأول الذي خرجت منه والأهمية التي حققها للمجتمع المسلم.

3. وضع المنهج الدقيق في دراسة المصطلحات وتحديد المفاهيم الدقيقة لها، يكفل للدراسات الإسلامية في المعاهد والجامعات مساعدة الطلبة على فهم البحوث الموضوعة للدراسة وتشكيل وضعية بحثية دقيقة للمعارف.

ولأن موضوع تطور مصطلح أهل السنة والجماعة يدرس من عدة جوانب، ويحتاج لتحديده مناهج متعددة فإنه يدخل تحت المنهج الاستقرائي التحليلي.

وكذلك المنهج التاريخي الوصفي، وفي الأخير يمكن اعتماد تحليل النصوص ودراستها من الجانب النقدي.

1. المفاهيم الأساسية:

1.1 تعريف السنة:

1.1.1 السنة لغة:

السنة في اللغة مشتقة من سن يسِن، ويسن سنا، فهو مسنون. وسن الأمر: بينه.

السنة لغة الطريقة والسيرة حميدة كانت أو قبيحة[1].

وتطلق على الطريقة المستقيمة المحمودة[2].

قال مُحَّد عليه الصلاة والسلام: (**لتتبِعن لسنن من كَانَ قَبلَكُم شِبرا بِشِبروذِراعا بِذِراع** [3].

السنة في اللغة الطريقة أو السيرة، وإذا أطلق لفظ السنة انصرف إلى الطريقة الحميدة؛ "لأن أصلها: الطريقة المحمودة فإذا أطلقت انصرفت إليها"[4].

السنة في القرآن تستعمل بمعنى الطريقة، يقول الراغب: "وسنة قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته. نحو: {**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** } (الفتح:23)، وقوله سبحانه: ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣**﴾ (فاطر: 43)"[5].

2.1.1 السنة اصطلاحا:

للفظ السنة عديد الاصطلاحات، فتعريفها عند المحدثين يختلف عند الأصوليين .

السنة في اصطلاح المحدثين:

السنة ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقِية أو خُلقية، أو سيرة سواء كان قبل البعثة النبوية أو بعدها[6].

السنة في اصطلاح الأصوليين:

يطلق لفظ السنة "على ما جاء منقولا عن النبي ﷺ على الخصوص مما لا ينص عليه الكتاب العزيز، بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام كان بيانا لما في الكتاب أو لا.

ويطلق أيضا في مقابل البدعة؛ فيقال فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ، كان ذلك مما نص عليه الكتاب أم لا"[7].

فالسنة عندهم ما دل عليه دليل شرعي، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز، أو عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو تقرير أو فعل أو إشارة أو كتابة. فهي أصل من أصول الأحكام الشرعية، ودليل من أدلتها يلي الكتاب.

– السنة في اصطلاح الفقهاء:

السنة عندهم ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة، وتطلق عندهم على ما يقابل البدعة[8].

يقول السبكي: "السنة اصطلاح: وهو ما علم وجوبه أو ندبيته بأمر النبي ﷺ"[9].

– السنة تقابل الحكمة:

إذا وردت الحكمة في القرآن مقرونة بالكتاب فهي السنة بإجماع السلف[10] كقوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ (النساء:113)، قال الشافعي: "سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله"[11].

2.1 تعريف الجماعة:

1.2.1 الجماعة لغة:

"مأخوذةٌ من الجمعِ، وهو ضم الشيءِ، بتقريبِ بعضِهِ من بعضٍ، يقال جمعته، فاجتمع.

ومشتقة من الاجتماع، وهو ضد التفَرق، وضد الفرقَة"[12].

والجماعة: العدد الكثير من الناس، وهي أيضا طائفة من الناس يجمعها غرض واحد.

والجماعة: هم القوم الذين اجتمعوا على أمرٍ ما.

قال تعالى: {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** } (آل عمران:103)، وقال: {**{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** } (آل عمران:105).

2.2.1 الجماعة اصطلاحا:

جماعة المسلمين، وهم سَلف هذه الأُمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإِحسان إِلى يوم الدين؛ الذين اجتمعوا على الكتاب والسنة، وساروا على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين وحثّهم على الجماعة والائتلاف والتعاون ونهاهم عن الفرقة والاختلافِ والتناحر. فالجماعة عند ابن تيمية: "الاجتماع ضد الفرقة"[13].

3.2.1 مصطلح أهل السنة والجماعة:

لأهل السنة والجماعة إطلاقان: إطلاق عام وإطلاق خاص[14]، أما الإطلاق العام فهو مقابل الشيعة، فيدخل فيه جميع الطوائف إلا الرافضة، وأما الإطلاق الخاص فهو مقابل المبتدعة وأهل الأهواء، فلا يدخل فيه سوى أهل الحديث والسنة المحضة الذين يثبتون الصفات لله تعالى، ويقولون إن القرآن غير مخلوق، وأن الله يُرى يوم الآخرة، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل السنة.

فأهل السنة والجماعة هم أهل السنة لأنهم تمسكوا بسنة النبي ﷺ وهديه، واقتفوا طريقته باطنا وظاهرا، في الاعتقادات والأقوال والأعمال[15].

وأهل السنة والجماعة هم الجماعة التي يجب اتباعها، لأنهم اجتمعوا على الحق وأخذوا به، ولأنهم يجتمعون دائما على أئمتهم، وعلى السنة والاتباع، وترك البدع والأهواء والفرق.

2. تطور مصطلح أهل السنة والجماعة:

أهل السنة والجماعة مصطلح واسع يستخدم بشكل خاص للدلالة على المذهب الإسلامي السني الذي يعتمد على تمييزه عن الشيعة. هذا المصطلح يختزن مفهوما عقديا دينيا في كلمة السنة بأن هذا المذهب هم متبعو السنة النبوية (أقوال و أفعال و تقارير رسول الإسلام مُحَّد ﷺ) ومفهوما سياسيا يتبدى من خلال تأكيد فقهاء هذه الجماعة دوما على وحدة الجماعة و منع

الفتنة، وهو موقف بدأت بوادره في موقف الكثير من الصحابة عندما اعتزلوا الفتنة (الصراع بين معاوية وعلي) من ثم قبلوا بحكم معاوية بعد أن استتب له الأمر خوفا من الفتنة.

ولظهور هذا المصطلح أول مرة في التاريخ الإسلامي عدة آراء، منهم من يقول في سقيفة بني ساعدة، ومنهم من يقول في معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

1.2 ظهور المصطلح:

نشوء فرقة أهل السنة ينظر إليها من ناحيتين: الأولى متعلقة بالخلافة ببعدها السياسي البحت، والثانية متعلقة بالعقائد والأحكام.

فأما من الناحية السياسية، فقد وقع بشأنها أول خلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في سقيفة بني ساعدة عندما تنازع الإمارة المهاجرون والأنصار، وقاطع علي عليه السلام ومن معه من الهاشميين وبعض الصحابة نزاعهم ومن ثم اتفاقهم لأنهم كانوا يرون أن عليا "كان أحق بالخلافة ممن تنازعوا عليها.

وهكذا يمكن اعتبار أن ولادة فرقة أهل السنة كانت في السقيفة وإن لم يظهر من معالمها المميزة آنذاك سوى الخط السياسي، حيث كان يعرف الأتباع من تأييدهم لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، ثم نما وترعرع هذا الخط في عهد الأمويين بحيث كانت تظهر السلطة الحاكمة كممثل ومدافع عن خلافة الثلاثة .

وأما من ناحية العقائد والأحكام، فقد كان ظهور أهل السنة والجماعة كفرقة إسلامية لها عقائدها المميزة ومدرستها الفكرية والفقهية المستقلة والواضحة المعالم على يد جماعة أهل الحديث في أواخر العصر الأموي، ثم تبلورت ونضجت زمن الإمام أحمد بن حنبل في مطلع القرن الثالث الهجري.

هذا الرأي أكثر من يتبناه الشيعة، لأنهم يحددون خط ظهور أهل السنة والجماعة بالسياسة، ويحملون المسلمون الأوائل الخلاف الأول الذي حدث في سقيفة بني ساعدة، لاختيار خليفة رسول الله ﷺ.

أما اللفظ يرجع تاريخ إطلاقه إلى صدر الإسلام، و عصر النبوة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**} (آل عمران: 106)؛ قال: "فأما الذين ابيضت وجوههم: فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودت وجوههم: فأهل البدع والضلالة"[16].

ثم تتابع ورود استعمال هذا اللفظ وإطلاقه عن كثير من أئمة السلف رحمة الله عليهم، أذكر طائفة منهم حسب التسلسل التاريخي:

فمن ورد عنه ذلك:

- أيوب السختياني (68- 131هـ):

فقد أخرج اللالكائي عنه أنه قال: "إني أخبر بموت الرجل من أهل السنة وكأني أفقد بعض أعضائي" وقال أيضاً: "إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة".

- سفيان الثوري "ت 161هـ":

قال: "استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء". وقال: "ما أقل أهل السنة والجماعة".

- الفضيل بن عياض "ت 187هـ":

قال: "أهل الإرجاء يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل"[17] (4).

أطلق على علماء أهل السنة والجماعة بهذا الاسم وذلك بسبب تمسّكهم بسنّة وهدي النبي عليه الصلاة، وأصحابه من بعده، ولم يختلفوا في أصول الدين، وقد درجت هذه التسمية في عصر الخلافة الأموية، إلا أنّ انتشارها كان في منتصف عصر الخلافة العباسية.

والمقصود من هذا المصطلح إظهار أعظم ما تميز به أهل السنة آنذاك، وهو تمسكهم بطريقة النبي عليه الصلاة والسلام في العلم والعمل، وتمسكهم بجماعة المسلمين فلم يفرقوها.

إن أول من استخدم مصطلح أهل السنة هو العالم محمد بن سيرين، حيث قال: " لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُم، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ"[18].

2.2 تطور مصطلح أهل السنة والجماعة:

2.2. 1 أهل الحديث:

شهد القرن الثالث الهجري حركة كلامية كبرى، بسبب انتشار الفرق ودخول العلوم الأخرى العالم الإسلامي، الذي كانت تمتد فتوحاته على أيدي المسلمين أصقاع الأرض.

ومن العلوم التي دخلت على العالم الإسلامي علم الكلام، الذي أثر كثيرا في المسلمين وسار ببعضهم إلى مسارات ضالة. جعلت عديد الفرق تظهر مخالفة لأصول الدين الإسلامي.

وكان اسم (أهل السنة) ابتداء وصفا لمجموعة من العلماء المشتغلين بتدوين الأحاديث النبوية، والذين عرف منهجهم في تحصيل العقائد والأحكام من ظواهر الروايات باسم (فرقة أهل الحديث) التي ظهرت في عهد الأمويين. ولأن موضوع الأحاديث هو السنة النبوية فإن كلمة السنة أصبحت تستخدم أحيانا " بديلا " لكلمة الحديث.

فإذا قيل (أهل الحديث) فالمقصود بهم الذين يُعنون بحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، باذلين جهدهم على مدارسة أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وروايتها واتباع ما فيها علما وعملا، ملتزمين بالسنة مجانبين للبدعة متميزين عن أهل الأهواء الذين يقدمون مقالات أهل الضلالة على أقوال رسول الله ﷺ، ويقدمون عقولهم الفاسدة وكلامهم المتناقض على ما جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة.

فأهل الحديث أول مصطلح لأهل السنة، وُجد للدلالة على علماء المسلمين الذين اهتموا بتدوين السنة النبوية الشريفة، وتسجيل الشروح والصحاح والسنن والمسانيد، نظرا لتأخر تدوين السنة إلى القرن الثاني الهجري، بأمر من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

وأهل الحديث هم الذين التزموا بالسنة النبوية والحفاظ عليها، والالتزام بجماعة المسلمين والنهي عن الفرقة. وأصحاب الحديث وجدوا كفرقة مقابلة للجهمية والمعتزلة والخوارج، وأهل البدع، زمن الإمام أحمد بن حنبل في القرن الثالث الهجري[19].

2.2.2 أهل السنة:

مصطلح أهل السنة وصاحب سنة زمن التابعين وتابعيهم، لا يعني طائفة بعمومها، إذ لا وجود للطائفة آنذاك، لكن يُطلق على من اشتهر من العلماء في أواخر عصر التابعين بالعناية بالسنن وروايتها، وعدم الطعن في الصحابة، ومن اشتهر بالسنة في باب الاعتقاد، وهي طريقة سلف الأمة من الصحابة ﷺ في الإيمان والتسليم للنصوص بعيدا عن الجدل والخصومة في الدين الذي اشتهر به علماء القدرية والشيعة والمرجئة. "شاع في عصر أتباع التابعين وفي نصف القرن الثاني استعمال هذا اللفظ –أهل السنة– حتى قال عبد الرحمن بن مهدي (إذا رأيت حجازيا يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة، وإذا رأيت بصريا يحب حماد بن زيد فهو صاحب سنة، وإذا رأيت الشامي يحب الأوزاعي وأبا إسحاق الفزاري فهو صاحب سنة)"[20].

عندما بدأ عصر التدوين، وتشكلت المدارس الفقهية التي امتدت في الأراضي الإسلامية، والتي أمدت الدولة الإسلامية بالقضاة والأئمة الفقهاء، والمدارس الحديثية التي عنيت بالسنة جمعا وحفظا ونشرا، فامتد بذلك مفهوم أهل السنة ليصبح شعارا ليس لطائفة من أهل العلم كما في أواخر القرن الأول، بل اسما عاما لعموم الأمة التي فشت فيهم مذاهب الأئمة الأربعة، وأئمة الفقه والحديث، الذين بلغ أصحابهم وأتباعهم الألاف من القضاة والولاة وعلماء الفقه والحديث الذين كانوا يشكلون ثقافة المجتمع الفقهية والدينية، فصار عامة الأمة تبع لهؤلاء الأئمة.

ولهذا قال ابن حزم: "وأهل السنة هم الصحابة ﷺ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا أو من اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم"[21].

3.2.2 أهل السنة والجماعة:

لقد كان الأصل الأول الذي يتميز به أهل السنة والجماعة عن غيرهم، هو الالتزام بسنة رسول الله ﷺ والالتزام بجماعة صحابته ﷺ، فإن ذلك قد شكل ملامح عامة يمكن من خلالها التعرف عليهم والاشارة إليهم وسط هذا العدد من الفرق والتيارات والأهواء المختلفة[22].

إطلاق مصطلح "أهل السنة والجماعة" كان من عامة الأمة وجماهيرها، لأنهم فرقة تقول بالكتاب المنزل على مُحَمَّد ﷺ والسنة النبوية والإجماع، وهم الذين اجتمعوا على الأصول الثلاثة ولم يتفرقوا عليها، وخالفوا أهل الأهواء والبدع، وهم الذين يتميزون بمجموعة من الصفات تفرقهم عن غيرهم من الفرق الأخرى، ومن أهم هذه الميزات نذكر:

- أنهم أهل الوسط والاعتدال بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والجفاء سواء أكان في باب العقيدة أم الأَحكام والسلوك، فهم وسطٌ بين فرق الأمة، كما أنَّ الأُمة وسطٌ بين الملل.

- اقتصارهم في التلقِّي على الكتاب والسنة، والاهتمام بهما والتسليم لنصوصهما، وفهمهما على مقتضى منهج السلف.

- ليس لهم إمام معظَم يأَخذون كلامه كلَه ويدعونَ ما خاَلفه إلا رسول الله ﷺ.

يقول ابن تيمية في تعريف أهل السنة والجماعة: "أهل السنة متفقون على محبة الصحابة وموالاتهم وتفضيلهم على سائر القرون، وعلى أن إجماعهم حجة وعلى أنه ليس لهم الخروج على إجماعهم"[23].

و"أهل السنة والجماعة هم سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم بإحسان "[24].

ومن خلال تعريف ابن تيمية فإن مصطلح أهل السنة والجماعة ليس شعارا لطائفة بعينها فقط، بل هو معيار موضوعي في تعريف وتحديد مفهوم (السنة والجماعة)، وأنه ما كان عليه الصحابة وهم سلف الأمة، ومن كان على طريقتهم في فهم الدين بلزوم إجماعهم فيما أجمعوا عليه، وعدم الخروج عن مجموع أقوالهم فيما اختلفوا فيه في أصول الدين وفروعه.

فشعار أهل السنة والجماعة هو لزوم السنن النبوية والآثار السلفية القائمة على الاتباع، بخلاف أهل الأهواء والابتداع، الذين صارت العقائد عندهم تؤسس على الحجج النظرية والعقلية، تأثرا بالفلسفة اليونانية . إن مصطلح أهل السنة والجماعة تحدد بعد القرن الأول والثاني في مجموعة من العلماء المسلمين الذين ارتبطوا ارتباطا وثيقا بسنة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام وبالصحابة وتابعيهم، بوصف الجماعة وعدم التفرق، والثبات على المصادر الأصيلة للدين الإسلامي، ومحاربة الفرق المبتدعة والضالة في سبل الشيطان، عن طريق حمل الأمة جميعا على القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإجماع السلف الصالح.

ولهذا فإن جمهور العلماء أسسوا المدارس الفقهية، والمدارس الحديثية وديار القضاة التي تضمن للأمة الثبات على دين الله تعالى وسنة رسوله مُحَمَّد ﷺ واستمرار الفتح الإسلامي لديار الغرب والشرق، ولهذا يطرح السؤال التالي: في التغيير الذي أحدثه مفهوم أهل السنة والجماعة في التاريخ الإسلامي؟.

3. حركة التغيير في التاريخ الإسلامي:

1.3 حركة التغيير السياسي:

تفترق الطائفة الشيعية عن أهل السنة والجماعة في أنها لا تقر بأحقية خلافة الخلفاء الراشدين الثلاث الأوائل: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ويرى متبعي هذه الطائفة (الشيعة) أن الإمامة منصوص عليها ومحددة من الله سبحانه وتعالى، بينما يرى أهل السنة أن الإمامة لم يتم تحديدها من قبل الله جل وعلا. والإمامة فضل من الله يتفضل به على من يشاء من عباده وليست خاصة لأحد.

تعود جذور الخلاف الرئيس بين السنة والشيعة إلى أكبر وأول أزمة مر بها التاريخ الإسلامي ألا وهي الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ﷺ، هذه الفتنة وما خلفته وراءها من نزاعات عنيفة سيما بين معاوية وعلي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع (الذي رآه عليّ نزوع من معاوية للسلطة ورآه معاوية مطالبة للثأر لدم عثمان) كانت السبب الرئيسي وراء تفتت المسلمين. فالانقسام بدا أنه سياسي تطور ليتعمق عقائديا وفقهيا.

الموقف الأساسي لمعظم الصحابة الذي شكل أساس الفكر السني فيما بعد هو محاولة اعتزال هذه الفتنة ومحاولة أخذ موقف حيادي من النزاع ولعل أكبر ممثل لهذا الاتجاه: عبد الله بن عمرﷺ الذي صرح بهذا الموقف مرات عديدة. هذه الحيادية وإن كانت تميل في الكثير من الأحيان لإعطاء الأحقية في النزاع لعلي دون معاوية إلا انها في النهاية تنحو نحو تعديل كافة الصحابة وعدم الخوض في تكفير أي أحد، أخذا بالقول أن: (المجتهد إذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران).

وبهذا يعتبر أهل السنة أن هذه الخلافات التاريخية هي مجرد اجتهادات لصحابة عدول. ومع أنهم يجوّزون الحكم على تلك الخلافات، لكنهم لا يجوزون تفسيق الصحابة ويرون أنهم أهل اجتهاد ويطلقون صفة العدالة على كافة صحابة رسول الله بما فيهم معاوية بن أبي سفيان.

مصطلح أهل السنة والجماعة أطلق في القرن الثالث الهجري، على كل من يثبت الخلافة وأنها شورى لا بالنص، ويثبت خلافة الراشدين ويترضى عن سلف الأمة أجمعين، ويقول بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

فيشمل اسم أهل السنة والجماعة المذاهب الفقهية السنية المشهورة، وأهل الحديث، والصوفية من أهل السلوك، والمتكلمين من أهل السنة في مقابل:

الشيعة الذين لا يرون شرعية الخلافة، ويقولون بالإمامة والنص.

والخوارج وغيرهم من الفرق الذين طعنوا في خلافة عثمان وعلي، وكفّروا الأمة، ورأوا الخروج عليها بالسيف.

إن الإطلاق الأشد أثرا في تاريخ الأمة كله هو مصطلح أهل السنة والجماعة، ولهذا يطلق الكثير من المصنفين الشيعة والمعتزلة لفظ (مذهب العامة)[25] على أهل السنة والجماعة الذين يمثلون عامة الأمة وجماهيرها.

ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة مذهبا شعبيا جماهيريا واقعيا، وكان له الأثر الكبير في تاريخ الأمة السياسي من خلال وقوفه مع الدولة والخلافة ووحدة الأمة، وإقامة الجهاد، وهو ما حافظ على الإسلام الدين، والإسلام الأمة، والإسلام الدولة، والإسلام الحضارة، أمام كل التحديات التاريخية التي واجهها العالم الإسلامي.

2.3 حركة التغيير العلمي والمنهجي:

تعود نشأة المذاهب الفقهية السنية الى بداية الإسلام، وخاصة بعد وفاة رسول الإسلام مُحَمَّد ﷺ، حيث اجتهد صحابته وأتباعه والمسلمين عامة في تطبيق أقواله وأفعاله.

مع انتشار الإسلام وتوسعه وتعرضه للكثير من القضايا الجديدة الدينية والتشريعية كانت هناك حاجة ملحة للخروج باجتهادات لهذه القضايا الفقهية المستجدة وتلبية حاجات الناس والإجابة عن تساؤلاتهم ومن هنا نشأت جماعة من المتفقهين (العالمين) في الدين تعلم الناس في كل إقليم شؤون دينهم ودنياهم.

إن التوسع الجغرافي للإسلام وتنوع البيئات التي انتشر بها، وأيضا قابلية الكثير من النصوص الشرعية الإسلامية للاجتهاد فيها حسب الظروف والحالات أديا إلى نشوء مدارس فقهية منتشرة في الأمصار الإسلامية، وأصبح لكل عالم فقيه أتباع يعملون على نشر فتاواه وحتى العمل ضمن القواعد التي يضعها لإصدار فتاوى جديدة.

المذاهب الفقهية الأربع التي انتشرت بشكل واسع عند أهل السنة والجماعة، وأصبحت رسمية في معظم المناطق الإسلامية هي حسب ظهورها[26]:

1- مذهب أبي حنيفة النعمان.

2- مذهب مالك بن أنس.

3- مذهب الشافعي.

4- مذهب أحمد بن حنبل.

3.3 حركة التغيير الاجتماعي:

يمثل أهل السنة والجماعة الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة النبي مُحَمَّد ﷺ، ممن تمسكوا بكتاب الله تعالى وسنة نبيهم، وأحبوا الصحابة ووالوهم، وأخذوا عنهم الحديث النبوي علما وعملا، فقها وسلوكا، فهم الذين يرفعون شعار القرآن والسنة والإجماع، فيتمسكون بجماعتهم، ويحافظون على ائتلافها، وينضوون تحت رايتها بعيدا عن راية أهل التفرق والأهواء[27].

من الأسباب التي جعلت مذهب أهل السنة والجماعة مذهبا شعبيا جماهيريا ما يلي[28]:

1.3.3 كما لا يحتاج الدخول إلى الإسلام إلا الإقرار بالشهادتين، فكذلك اسم أهل السنة والجماعة لا يحتاج الدخول فيه إلا إلى الإقرار الإجمال بالكتاب والسنة النبوية وما كان عليه سلف الأمة.

3.3. 2 مصطلح أهل السنة والجماعة يتوافق مع ظاهر القرآن الكريم والسنة النبوية، ولهذا يلجأ المخالفون إلى التأويل وبناء عقائدهم على الأدلة العقلية التي لا يُحسنها العامة، بينما عقيدة أهل السنة والجماعة تقوم على الأدلة النقلية من نصوص الكتاب والسنة.

3.3. 3 الواقعية والوسطية وكونه الأقرب إلى الطبيعة الإنسانية، في عامة أصوله العقائدية والسياسية، ولهذا كلما كانت الفرق الأخرى أقرب إلى أهل السنة والجماعة، كانت أكثر شعبية وقبولا في الأمة من غيرها.

فالرفض والخروج ونفي القدر أو إثبات الجبر، ونفي الصفات والتشبيه والارجاء المحض، هي الأقوال التي فارقت فيها الفرق المبتدعة السلف الصالح، ولهذا كان عامة المسلمين وأتباع الأئمة

الأربعة من أهل السنة والجماعة، لعدم قولهم بهذه البدع، فصارت السنة مذهب العامة، إذ لا يحتاج المسلم إلا إلى خلو الذهن من الأهواء والبدع الضالة، واتباع كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

خاتمة:

المراحل التي مر بها المجتمع المسلم من بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا، عرفت تغيرات سياسية واجتماعية كثيرة. هذه التغيرات ظهرت بشكل واضح بعد وفاة النبي مُحَّد عليه الصلاة والسلام وبداية الخلافة الراشدة من الناحية السياسية، وانتشار الإسلام في مناطق عدة، مما مكّن الكثير من العجم من الشرق والغرب الدخول في الدين الإسلامي، وانفتاح الدولة الإسلامية على علوم وثقافات أخرى.

ومن خلال هذه التغيرات تشكلت مجموعة من المفاهيم في المجتمع الإسلامي، منها مفهوم أهل السنة والجماعة، هذا الاسم الذي كان يمثل الصحابة ﷺ ومن تبعهم الذين حملوا لواء الإسلام والانتماء إلى سنة رسول الله ﷺ، وعدم الخروج عن الجماعة، كان مجرد اسم يطلق على المسلمين الأوائل، ثم تحول إلى مفهوم يمثل كيانا قائما بذاته في أرجاء الدولة الإسلامية.

وبعد القرن الهجري الأول ظهر الصراع من طرف بعض الفرق الإسلامية، التي اتخذت من العقل وسيلة لتأويل نصوص الوحي والخطاب الديني، فبدأ اللفظ يأخذ منحى الإطلاق الخاص على مجموعة من العلماء الذين اهتموا بالحديث الشريف وروايته ودراسته، والذين عرفوا بأهل الحديث، ثم تطور المصطلح حتى شكل اسم لكيان واضح المعالم في الدولة الإسلامية مقابل الفرق الدينية والسياسية الأخرى. مصطلح أهل السنة والجماعة كان له الأثر العميق والكبير في تاريخ الدولة الإسلامية من حيث:

1. تطور المصطلح وتشكيله لمفهوم واضح أمام جميع المعارف والعلوم الدخيلة على المجتمع المسلم.

2. التأثير السياسي في الدولة والأمة المسلمة؛ لأن مصطلح أهل السنة ربط المسلمين حول سنة نبيهم مُحَّد ﷺ وميزهم عن الفرق الأخرى، التي كانت ترفض الخلافة ونصوص السنة النبوية. وكذا

اجتماع عامة المسلمين حول علماء الأمة أكد رفض الفُرقة، والارتباط أكثر بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وجماعة السلف الصالح.

3. التأثير العلمي الواضح من القرن الهجري الأول، أين ظهرت المدارس الفقهية والحديثية والتفاف الناس حولهم، لأن العلماء والفقهاء والأئمة الذين انتشروا في الدولة الإسلامية، مكن الناس من الاجتماع حول دينهم والاستزادة من العلوم والمعارف، فكان لفظ فلان من أهل السنة مفهوم عرفي وليس شرعي أو لغوي.

لأن الناس جميعا دخلوا تحت لواء أهل السنة والجماعة ونبذوا الفرقة والابتداع في دين الله تعالى.

4. تطور لفظ أهل السنة والجماعة إلى مصطلح السلفية اليوم، وهم الجماعة المرتبطة بسنة رسول الله ﷺ وسلفه الصالح فهم يمثلون امتداد لسلف الأمة. وقد انتشرت هذه التسمية في الكثير من الدول الإسلامية، وشكلت تيارا سياسيا واجتماعيا في المجتمعات العربية والاسلامية.

المراجع:

1- الشاطبي:أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَّد، الموافقات، السعودية، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م.

2- السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن عسلي، جمع الجوامع في أصول الفقه، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/2003م.

3- مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، دار الوراق، المكتب الإسلامي، 2000م.

4-الفيروزآبادي: مجد الدين مُحَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م.

5- الفيومي: أحمد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، 1987م.

6- ابن منظور: أبو الفضل مُحَمَّد بن مكرم، لسان العرب المحيط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، 1408هـ/1988م.

7- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ت: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم، ط3، 1423هـ/2002م.

8- السبكي: علي بن عبد الكافي السبكي وولده تاج الدين عبد الوهاب، الإبهاج في شرح المنهاج، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م .

9- ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن قاسم، المدينة المنورة، السعودية، مجمع الملك فهد، 1425هـ/2004م.

10- ابن كثير: عماد أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، السعودية، دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م.

11- الشافعي، الرسالة، ت: أحمد مُحَمَّد شاكر، بيروت، المكتبة العلمية، (د.ت).

12- ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، القاهرة، دار الحديث، 1418هـ.

13- مُحَمَّد بن الحسين بن حسن الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، السعودية، دار ابن الجوزي، ط1، 1416هـ/1996م.

14- أبو القاسم اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ت: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، (د.ت).

15- محمد عبد الهادي المصري، أهل السنة والجماعة الانطلاقة الكبرى، مصر، القاهرة، دار الإعلام الدولي، ط4، 1992م.

16 - الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: محمد سعيد البدري، بيروت، دار الفكر، 1412هـ/1992م.

17- ابن حزم الظاهري: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والنحل، بيروت، دار الجيل، 1416هـ/1996م.

18- مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبه، ط5، 2001م.

19- مصطفى سعيد الخن، دراسة تاريخية للفقه وأصوله والاتجاهات التي ظهرت فيها، الشركة المتحدة للتوزيع، ط1، 1404هـ/1984م.

20- عبد عبد الغني عبد الخالق، حجية السنة، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، (د.ت).

21- خالد ضحوي فدان الظفيري، ضوابط معاملة الحاكم عند أهل السنة والجماعة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م.

الهوامش:

[1]- ينظر: الفيروزآبادي: مجد الدين محمَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م، مادة (سار) ومادة (طرق)، واالفيومي: أحمد بن محمَّد بن علي الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، 1987م، ص292.

[2]- ينظر: ابن منظور، أبو الفضل محمَّد بن مكرم، لسان العرب المحيط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، 1408هـ/1988م، مادة (سن)، والقاموس المحيط مادة (سن).

[3]- أخرجه البخاري، في أحاديث الأنبياء، رقم: 3269، ومسلم في كتاب: العلم، رقم:2669 عن أبي سعيد الخذري.

[4]- الشوكاني، محمَّد بن علي بن محمَّد، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: محمَّد سعيد البدري، بيروت، دار الفكر، 1412هـ/1992م، ص31.

[5]– الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ت: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم، ط3، 423هـ/2002م، ص245.

[6]- ينظر: قواعد التحديث، ص35-38، وتوجيه النظر، ص2.

[7]- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمَّد، الموافقات، السعودية، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م، ص289-290.

[8]- الشوكاني، إرشاد الفحول، ص21.

[9]- السبكي، علي بن عبد الكافي السبكي وولده تاج الدين عبد الوهاب، الإبهاج في شرح المنهاج، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م، 36/1.

[10]- ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمَّد بن قاسم، المدينة المنورة، السعودية، مجمع الملك فهد، 1425هـ/2004م، 366/3، 82/19، 175، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، السعودية، دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م، 190/1، 201، 567.

[11]- الشافعي، الرسالة، ت: أحمد محمَّد شاكر، بيروت، المكتبة العلمية، (د.ت)، ص78.

[12]– ينظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة جمع، ومختار الصحاح، مادة جمع، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة جمع.

[13]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 157/4.

[14]- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، القاهرة، دار الحديث، 1418هـ، 221/2، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 155/4.

[15]– ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 358/3، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، ص17.

[16]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 325/2.

[17]- ينظر: أبو القاسم اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ت: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، وخالد ضحوي فدان الظفيري، ضوابط معاملة الحاكم عند أهل السنة والجماعة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م.

[18]- أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح من حديث ابن سيرين بسنده، ص15.

[19]- ينظر: ابن تيمية، منهاج السنة، 482/2، ومحمَّد عبد الهادي المصري، أهل السنة والجماعة الانطلاقة الكبرى، ص57-58.

[20]– حاكم المطيري، أهل السنة والجماعة الأصول العقائدية والأزمة السياسية، ص60.

[21]– ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل، بيروت، دار الجيل، 1416هـ/1996م، 90/2.

[22]– محمد عبد الهادي المصري، أهل السنة والجماعة الانطلاقة الكبرى، ص60.

[23]- ابن تيمية، منهاج السنة، 406/3.

[24]– ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 241/24.

[25]– ينظر: ابن قتيبة، خزانة الأدب، 74/8.

[26] - ينظر: السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن عسلي، جمع الجوامع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م، ومناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبه، ط5، 2001م، ص325-393، ومصطفى سعيد الخن، دراسة تاريخية للفقه وأصوله والاتجاهات التي ظهرت فيها، الشركة المتحدة للتوزيع، ط1، 1404هـ/1984م.

[27] - حاكم المطيري، أهل السنة والجماعة الأصول العقائدية والأزمة السياسية، ص78، بتصرف.

[28] - حاكم المطيري، أهل السنة والجماعة، ص65.